تقديم الناشر

كثيرًا ما يفتتن الناس بالأقوياء المنتصرين، وبالوجهاء الأثرياء... على مستوى الأفراد، وعلى مستوى المجتمعات والدول... يريدون أن يصبحوا مثلهم... وكثيرًا ما لا ينتبهون لعيوب ومثالب الفاتنين... وغالبًا لا يعرفون ـ ولا حتى يهتمون ـ كيف بلغوا تلك القوة وحققوا ذلك الثراء.. ويعجب كثير من الناس فى مصر وشرقنا الأوسط بما حققه الغرب من تقدم وثراء وقوة...

ولكن: كيف هيمن الغرب على العالم منذ حوالى قرن ونصف؟

نعم، يعمل الناس فى الغرب بجد واجتهاد... وهناك ديمقراطية ـ وإن كانت معيبة مريضة، فهى أفضل من استبدادنا القوى العفى ـ وهناك قانون يسرى على الجميع ـ إلا استثناءات، بينما لدينا قانون ينتهكه الأقوياء إلا استثناءات ـ ويحترمون العلم والعلماء والكفاءات ـ إلا استثناءات، ولدينا يسود الولاء والنفاق والانتهازية، فيرتفع الجهلاء والفاسدون إلا استثناءات ـ ولكن...

أولًا: عندما هيمن الغرب... لم تكن أحواله مثل اليوم... فما يعيشه اليوم هو حصاد هيمنته وليس سببها... وتلك الهيمنة قامت على عوامل رئيسية قليلة، أهمها:

- الاهتمام بالتفوق العسكرى، وسرعة، بل استغلاله الفورى عند تحقيقه.

- استباحة الآخر.. سواء كان ذلك باستباحة أرضه وثرواته الطبيعية، أو عمله وفكره، وحتى حياته، يستأصلها الغرب إذا لزم...

حدث هذا على مدار خمسة قرون، منذ بدء الثورة العسكرية (١٥٠٠)(*)، وما سماه

(*) أصدرت دار كمبريدج كتابًا بنفس الاسم: «الثورة العسكرية ١٥٠٠ ـ ١٨٠٠» كتبه جيفرى پاركر وصدرت منه عشر طبعات، آخرها فى عام ٢٠٠٥.

obeikandi.com

الغرب الكشوفات الجغرافية (نهاية القرن الخامس عشر).... فاستباح الغرب الأمريكات.. وأفريقيا.. وآسيا... واستراليا... نهب الثروات الطبيعية للعالم من فضة وذهب وألماس.. واسترق هنود أمريكا للعمل كسخرة، فلما استأصل قوتهم العاملة استرق الأفارقة... فعملوا فى مناجم التعدين ومزارع القصب والقطن والدخان... وقضى على صناعة النسيج فى الهند لحساب مصانع النسيج الإنجليزية التى مثلت العمود الفقرى للثورة الصناعية... وعندما احتار الإنجليز فى علاج عجز ميزانهم التجارى مع الصين، زرعوا الأفيون فى الهند ـ التى استباحوا سلب الرسوم على كل تجارتها مع كل العالم استيرادًا وتصديرًا ـ وصدروه للصين.. فلما صادرته الحكومة الصينية، غزت القوات البريطانية الصين فيما يُسمى حروب الأفيون (١٨٣٩ ـ ١٨٤٢)، وفرضت عقوبات مالية عليها، واستولت على بضع مدن صينية ـ منها هونج كونج التى عادت للصين مع نهاية القرن الماضى ـ وفرضت معاهدات تجارية مجحفة أجبرت الصين على توقيعها.

كذلك، أرسلت أمريكا أسطولها البحرى بقيادة الكومودور پيرى ليفتح الأسواق اليابانية بقوة نيران البوارج فى ١٨٥٣...

هنا بدأ الغرب فى الهيمنة على العالم من شرقه لغربه...

واتبعت بريطانيا والولايات المتحدة ومعظم دول أوروپا الغربية سياسات شديدة الحمائية لاقتصادها... حتى تربعت على القمة... فبدأت المطالبة بفرض التجارة الحرة على العالم... وحتى اليوم تعيد الولايات المتحدة تلك السياسة الحمائية إذا لزم الأمر.

وعندما بدأ الأوروپيون حربهم «العالمية» الأولى، كان الغرب يحتل ٢/٣ مساحة اليابسة فى العالم، ويسخرها ـ بمن عليها ـ لمصالحه.

ومع هذا... بدا اليوم لكل العيون أن الغرب يمر بأزمات مالية واقتصادية... وأنه يحتاج العالم لحل أزماته... ولن يحلها إلا باستباحة العالم من جديد... ثرواته الطبيعية... أمواله... طاقات عمله... ولكن بأشكال وقوانين جديدة حديثة...

وبدا لبعض العيون أن الغرب يمر بأزمة أخلاقية حضارية... لن يشفى منها إلا بأن يصيب بها بقية العالم، وهذا حل مدمر زائف، وقصير المدى.... أو بأن يغيِّر قيمه وثقافته وحضارته... التى ما زالت تبهر بعضنا فى مصر والشرق الأوسط.

Openkandil.com

وفى كتابنا هذا... يستعرض الدكتور مراد هوفمان ما أنتجه الغرب من مذاهب فكرية فى القرنين التاسع عشر والعشرين... ويبيِّن زيفها....

ويختتم كتابه الصغير بجزء عن الإسلام، يرى فيه ـ رغم كل ما يحدث فى العالم، والعالم الإسلامى ـ حلًّا لأزمات الغرب، والعالم.

ويناشد المسلمين: لا تنبهروا بالزيف... خذوا من الغرب أفضل ما فيه... التقدم العلمى والتكنولوچى... ولكن ارجعوا لدينكم وخذوا منه طريقة حياتكم.

* * *

راجع ترجمة الكتاب كلٌّ من الأساتذة: الدكتور سامح سعيد، والدكتور عمرو شريف، والدكتور محمد الخشت، راجع الأول نصوص الفيزياء والرياضة، والثانى نصوص الأحياء وأبحاث الدماغ والچينات، والثالث النصوص الفلسفية.

عادل المعلم

مقدمة

شهد القرن التاسع عشر صعود ثلاثة مشروعات، ذات أهمية عالمية فى التاريخ:

* ازدهار «مشروع الحداثة» (يرجن هابرماس)، المميز بالتقدم العلمى والتكنولوچى، وأيديولوچيات العقل والمادية والليبرالية.

* صعود الشيوعية، والاشتراكية، والفوضوية اليسارية، المميزة بالمادية الجدلية والتاريخية، وتعبئة حشود البروليتاريا فى صراع طبقى بهدف القضاء على الملكية الخاصة فى العالم، وصولًا فى النهاية إلى عالم بلا دولة.

* استعمار معظم دول العالم الثالث بواسطة قوى أوروپا الاستعمارية (بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، بلچيكا، هولندا، البرتغال) والولايات المتحدة.

شهد القرن العشرون انقلاب كل تلك الاتجاهات:

* عندما أخفقت الحداثة فى تحقيق وعودها الإنسانية، وأنتج العلم بعد النيوتونى شكوكًا أكثر من حلول، أصبحت «بعد الحداثة» المميزة بالنسبية، والشكوك العلمية، وأشكال جديدة من التصوف، والرفض لأجوبة عالمية، الأيديولوچية السائدة فى الغرب، بل بدأ الناس يتحدثون عن ضرورة عكس تحديث أوروپا (ريمى براج).

* بعد الوصول للسلطة فى الاتحاد السوڤييتى وأوروپا الشرقية بما فيها ألمانيا الشرقية، والصين الحمراء، وڤييتنام، وكوبا، أخفقت الماركسية اللينينية، الستالينية والمادية، بشكل مخزٍ فى المجالات السياسية والاقتصادية، حتى إن الاشتراكية كنظرية ذات مصداقية، اختفت تقريبًا من العالم بعد انهيار الاتحاد السوڤييتى.

* أدى انتهاء الاحتلال ـ على الأقل من الصورة الرسمية ـ إلى الاستقلال السياسى لكل الدول المحتلة فى جميع أنحاء العالم.

ومن الغريب، أن تستمر المستعمرات «سابقًا» فى الافتتان بالحداثة والاشتراكية الغربية، كما لو لم تكن كلٌّ منها قد فقدت مصداقيتها فى الغرب فى كلٍّ من الحرب العالمية الأولى والثانية!.

لا يمكن تبرير ذلك إلا بوقوع كثير من العقول القائدة فى آسيا وأفريقيا فى أسر الافتتان بتعاليم أسيادهم السابقين، حتى أصبحوا غربيين أكثر من العديد من مفكرى الغرب(*)!.

أقل ما يقال إن هؤلاء المفكرين العلمانيين فى العالم الثالث (بما فى ذلك البلاد العربية) عملوا لاستقلال بلادهم من داخل حدود الحضارة الغربية. وبهذا، اكتملت الحلقة النهائية لاستعمار الأمة، بمجرد استقلالها.

عملية الاختراق تلك، المسماة بالعولمة، لا تتعلق باختراق حدود جغرافية، ولكن بـ «السيطرة على العقول» (نادية مصطفى).

وفى الحقيقة «لم تفطم معظم البلاد العربية والإسلامية نفسها من سادتها المستعمرين» (ماهر رشدان).

بل حتى حركات الإصلاح والإحياء الإسلامية لم تستطع بشكل حاسم حتى الآن تغيير ذلك الوضع البائس.

بالطبع، عملت القوى المستعمرة بأقصى ما تستطيع لتوجيه التعليم بمسارات غربية فى المستعمرات لتربى قادة محليين يخدمون مصالحها. أفرخت الأنظمة الشيوعية طبقة محلية موجهة ماركسيًا، وأفرخت الأنظمة الغربية طبقة محلية موجهة غربيًا، واستمرت الطبقتان فى قيادة بلادهم ـ بعد التحرر ـ كما تعلموا تمامًا فى موسكو وكمبريدج والسوربون.

ليس من الصعب رؤية حدوث ذلك، ولكن الأصعب رؤية استعمار الأدمغة يستمر لمدة خمسين عامًا أو أكثر بعد إنهاء الاستعمار العسكرى.

لماذا لم يتعلم أولئك المثقفون (أو فى الحقيقة أشباه المثقفين) حتى من أخطائهم فى تجاربهم الاشتراكية والحداثية، ناهيك عن تعلمهم من أخطاء مستعمريهم؟.

نشأت بواعث النهضة الإسلامية التى أثرت على كل العالم العربى والإسلامى منذ منتصف القرن العشرين بسبب تكرار الحكومات المستقلة حديثًا ـ غير المفهوم ـ لأخطاء الغرب.

ضاقت وسئمت الشعوب الإسلامية ـ التى غربتها القوى الاستعمارية عن تقاليدها ودينها ـ من حكوماتها المستقلة التى غالت فى إبعادها عن جوهر دينها، ربما مثل أو أكثر ـ فى بعض

(*) فى الحقيقة، تلك العقول تقود من منطلق المراكز والإمكانيات التى توفرها لها الحكومات، وبدونها لن يكون لها إلا أضعف تأثير.

الفترات وبعض الحالات ـ من حكومات الاستعمار. ولو لم تفرض حكومات الاستقلال الحلول المستوردة الفاشلة، لما رفعت الشعوب شعار «الإسلام هو الحل». ومن الناحية الأخرى، لم تضع الحركات الإسلامية برامج فعالة، بل ولم تستطع حتى تأمين وجود قانونى لها فى معظم البلاد الإسلامية.

* * *

انطلاقًا من هذه الخلفية، جاء هذا الكتاب ليشرح ـ إلى حدٍّ ما ـ لماذا فشلت الشيوعية فى العالم (الجزء الأول)، ولماذا حلت ما بعد الحداثة محل الحداثة فى الغرب، وكيف يفعل به الغرق فى الملذات الحسية (الجزء الثانى)، يلى ذلك عرض، لماذا يكون الإسلام هو الحل من المأزق الذى أدى إلى غرق ـ ليس الغرب وحده فى مطلع القرن الواحد والعشرين، بل إلى حد ما ـ العالم العربى والإسلامى (الجزء الثالث).

وفيما يتعلق بنقدى للشيوعية/ الاشتراكية، فيجدر ملاحظة أن مؤسسيها نشروا معظم أعمالهم باللغة الألمانية، لغتهم الأصلية، وهى أيضًا لغتى الأصلية، مثل: كارل ماركس، فريدريك إنجلز، إدوارد برنشتاين، رودلف هيلفردينج، كارل كاوتسكى، كارل ليبكنشت، روزا لوكسمبرج. وبهذا، فمعظم قوائم أدبيات الشيوعية باللغة الألمانية، كذا معظم هوامش المراجع باللغة الألمانية، مما يجعلها ذات فائدة محدودة لقارئ الإنجليزية.

وبما أننى نشأت فى ألمانيا المقسمة بالحائط الشيوعى، فقد كانت دراسة الشيوعية أمرًا ضروريًّا.

وفى الحقيقة، فإن جزءًا من تدريبى الرسمى كدبلوماسى ألمانى اشتمل على دراسة عميقة للمادية الجدلية والمادية التاريخية على أساس المناهج الشيوعية المطبوعة فى ألمانيا الشرقية. كانت الشيوعية أمرًا ملموسًا فى ألمانيا، وعلى هذا أستطيع القول إنى أعرف ما أتحدث عنه، وفى الحقيقة لم أندهش من انهيار الاتحاد السوفييتى، فذلك كان أمرًا حتميًّا، والسؤال الوحيد بهذا الخصوص كان: متى؟

يزعجنى كثيرًا أن أقابل أكاديميين، فى قلب مدينة القاهرة فى أيامنا هذه على سبيل المثال، لا يزالون متعاطفين مع يوتوبيا الاشتراكية، بعد كل الفظائع التى ارتكبتها النظم التى حاولت تطبيق تلك الاشتراكية، تلك الفظائع التى يصعب تصويرها بالكلمة. أحاول إقناع أولئك الناس بأن الشيوعية سقطت ليس بسبب خطأ فى التطبيق، ولكن لأنها قامت أساسًا على مقدمات خاطئة. كان هذا واضحًا من البداية، بالطبع لمن يريد أن يبصر.

ثم أصبحت أعتقد أن أولئك المسلمين ـ الذين ما زالوا يهيمون بالشيوعية والاشتراكية ـ يجدون الراحة فى النظام الصارم الذى يعطى إجابة لكل شىء. بل ربما يقبلون الماركسية كمهرب لهم من الشكوك التى اكتنفتهم بعد أن أضاعوا يقين الإسلام. فى مثل هذه الأحوال، تحول هؤلاء المثقفون المسلمون ـ ببساطة ـ من عقيدة راسخة إلى عقيدة زائفة.

أما فيما يتعلق بمشروع الحداثة، فما أسهل أن نفهم استمرار افتتان كثير من المستعمَرين ـ سابقًا ـ بالثقافة الغربية، وتكنولوچيتها، وسر الصنعة لديها. أوليس يبدو أن التقدم العلمى والتكنولوچيا حكر على الغرب؟

ولكن الأمر الأكثر صعوبة أن نفهم لماذا نجد كثيرًا من العرب المحبين لأسلوب الحياة الأمريكية يتجاهلون عيوبها، على الرغم من الإشارات التى تنذر بوقوعها فى أزمة حضارية.

تزداد الأمور سوءًا بسبب استمرار جهل المثقفين غير الغربيين بالثورة العلمية التى اجتاحت الغرب فى السنوات المائة الماضية، فى فيزياء الجسيمات متناهية الصغر، علم الكون والفضاء، الكيمياء البيولوچية والإلكترونيات، الهندسة الوراثية والنانو تكنولوچى، نظرية الفوضى أو الشواش (الكايوس) والمجالات الأخرى. تلك الثورة التى قادها علماء مثل جوتلوب فريج، ماكس پلانك، ألبرت أينشتاين، ڤرنر هايزنبرج. لم تجعل تلك الثورة كلًّا من المادية والإلحاد بصورتيهما التقليديتين فقط من أمور الماضى العتيق التى تستحق الإغفال، بل أصبحتا غير منطقية بالمرة.

أعتقد أن كثيرًا من المثقفين العرب والمسلمين ما زالوا يتبعون ـ بتفاخر ـ اتجاهًا يعتبرونه تقدميًّا، ولكنه كان يمكن اعتباره كذلك منذ مائة وخمسين سنة، فى جوتنجن أو أكسفورد، ولكنه لا يمثل الآن سوى هامش سفلى فى صفحة تاريخ العلم.

لتوضيح تلك النقط، اضطررت لوصف التطور فى مجالات علمية عديدة بدون أن أكون خبيرًا فى أىٍّ منها، مع أن والدى كان پروفيسورًا ألمانيًّا تقليديًّا فى الرياضة والفيزياء. ولكنى أزعم أنه ليس من الضرورى أن يكون المرء كيمياويًّا أو بيولوچيًّا؛ ليتبين النتائج الفلسفية والدينية المترتبة على اكتشافاتها.

هنا دعوتى، وهى: دعونا لا نرفض الحضارة الغربية من الألف إلى الياء، فهناك الكثير الذى يمكن أن نتبناه منها، ولكن أستحلفكم بالله، دعونا نأخذ منها أفضل ما فيها.

* * *